

الفصل الثاني

لقد بُعد صوت الكروان قليلاً قليلاً حتى انقطع ولم يبلغني منه شيء، وعاد الليل إلى سكونه الهادئ الثقيل، واطمأن من حولي كل شيء، فما أسمع إلا هذه الدقات المنتظمة تصدر عن الساعة غير بعيد، وهذه الدقات المضطربة المختلفة تصدر عن هذا القلب الحزين ... وأنا أخذ نفسي بالهدوء لألائم بينها وبين ما حولها فلا أوفق لبعض ذلك إلا في مشقة وعناء، وأنا أنظر إلى هذه الأشياء حولي في الغرفة فأرى ثراءً ويسراً، وأرى ترفاً وكلّفاً بالجمال والفن، وأنا أمدُّ عيني إلى المرأة أمامي وأثبتها في أديمها الصافي الصقيل حيناً فتعود إليّ بصورة إلا تكن رائعة بارعة، فإنها لا تخلو من رُواء ونضرة وحسن تنسيق، وما لي أسأل عن صورة هذه المرأة الجامدة الهامدة التي لا تحسُّ شيئاً ولا تشعر بشيء ولا تعرب عن شيء، وإني لأرى صورتني مرّات ومرّات في غير مرآة من هذه المرايا الحساسة الشاعرة البليغة التي تحسن الإفصاح عما في النفوس، وهي العيون!

لقد رأيت صورتني اليوم في غير عين من هذه العيون التي كانت ترمقني مسرعة، ثم تعود إليّ مرّة أخرى فتثبت في وجهي لا تكاد تنصرف عنه، وكنت كلما رأيت صورتني في هذه العيون يحيط بها الإعجاب والرغبة والشهوات الآثمة لا أنكر ما أرى، ولا أكره ما أجد من الشعور، ولا أردُّ نفسي عن هذا الغرور الذي يثيره في المرأة إعجاب الناس بها وتهالكهم عليها.

ثم أنا أنهض من مجلسي، وأمشي في غرفتي لحظة غير قصيرة، أذهب فيها وأجيء، وأقف عند ما يملأ هذه الغرفة من أدوات الترف والنعمة، فأطيل النظر إليه لا معجبة ولا مكبرة له، وإنما أسأل نفسي: أنا صاحبة هذا كله؟ أنا المالكة لهذا كله؟ أنا صاحبة هذه الصورة التي تردّها إليّ المرأة، والتي كانت ترمقها العيون معجبة حين كنت أتناول الشاي في بعض مشاربه عصر اليوم؟!